الفصل الرابع

الجبريـــــة

obeikandl.com

obeikandl.com

الجبرية

قال السيد فى التعريفات.

الجبرية هو من الجبر، وهو: إستاد الفعل إلى الله تعالى.

والجبرية اثنان: متوسطة، تثبت للعبد كسبا فى الفعل كالأشعرية وخالصة لا تثبت كالجهمية[1].

والكلام فى نشأة الجبرية يختلف عن الكلام فى نشأة غيرها من الفرق ففى الفرق الأخرى تسأل: متى نشأت هذه الفرقة.

ولكن فى الجبرية لا يأتى هذا السؤال، إذ إنه ما من بيئة إلا ونجد فيها من يقول بالجبر، لا فرق فى ذلك بين بيئة فى أعلى سلم الفكر وأخرى فى الدرك الأسفل من الجهل.

إن الإنسان عندما يتعامل مع الوسط الذى يعيش فيه ويحبط به من سماء وأرض وشمس وقمر، ثم مع حوادث تنزل به.

هذا الإنسان وسط هذه العوامل كثيرًا ما يتساءل بينه وبين نفسه أو بينه وبين الآخرين: هل لنا من الأمر شيء.

والإجابة على هذا السؤال ليست واحدة لكل الناس، بل ولا للإنسان الواحد فى كل الظروف.

((١) وهو هنا يتفق مع الشهرستانى فى الملل فهو يقول: الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف فالجبرية الخالصة هى التى لا تثبت للعبد فعلاً؛ ولا قدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة أن يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما فى الفعل، وسمى ذلك كسبا فليس بجبرى ص ١٢٦ جـ ١ والخلاف بين السيد والشهرستانى يرجع إلى الخلاف فى الكسب - بعد إثباته للعبد - هل هو بقدرة العبد أولا. فالكسب الذى جعله الشهرستانى يخرج من الجبرية هو الأول.

ففى بعض الأحيان يقول الإنسان بأنه حر بناء على شعور معين، يشعر به وفى بعض الأحيان يقول بالجبر كواقع يحسه.

وفى بعض الأحيان يقول بالجبر ليعتذر به عن ذنبه، وليبرر[1] به عملاً ما صدر منه، أو ليأخذه حجة على دعوى معينة يريد أن يلتمس لها سندًا.

وعن هذا الصنف الأخير يحدثنا القرآن الكريم.

يقول تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١٤٨

يقول الرازى فى تفسيره:

إن الله سبحانه فى هذه الآية "حكى عنهم عذرهم فى كل ما يقدمون عليه من الكفريات.

فيقولون:

لو شاء الله منا ألا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر، وحيث لم يمنعنا عنه، ثبت أنه مريد لذلك، فإذا أراد الله ذلك منا امتنع منا تركه فكنا معذورين فيه"أ هـ.

ويقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النحل آية ٣٥.

يقول الإمام الرازى فى تفسيره:

إنها من شبه منكرى النبوة"وأنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن فى النبوة.

فقالوا:

---

(١) برر عمله زكاه، وذكر من الأسباب ما يبيحه (محدثه) المعجم الوسيط.

لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان سواء جئت أم لم تجئ، وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى، ولا فائدة من مجيئك وإرسالك. فكان القول بالنبوة باطلا.

والإمام الرازى حين يجعل غرض الكفار من الآية الأولى هو حكاية عذرهم فى كل ما يقدمون عليه، وفى الآية الثانية هو الطعن فى النبوة، إنما أخذ ذلك ـ كما بين ـ من وضع الآية بين غيرها من الآيات.

والآيتان تفيدان أن هذا القول كان شائعًا فى الأمم السابقة:

إنه ليس خاصًا بأمة دون أمة، ولذلك تقول آية الأنعام.

"كذلك كذب[1] الذين من قبلهم.

وتقول آية النحل:

"كذلك فعل الذين من قبلهم".

كما بين الله سبحانه أن الاعتذار بهذا كان، كما تفيد آية النحل، سيكون، كما تفيد آية الأنعام.

وبذلك ـ كما تفيد الآيتان ـ نصل إلى أن القول بالجبر ليس حديثًا، وكما أنه ليس حديثًا فإنه مستمر.

وقد وجدنا ـ كما سنجد ـ فى كل عصر من يقول بالجبر.

لا فرق فى ذلك بين من ينتسب إلى علم الكلام أو الفلسفة أو الشعر أو الأميين الذين ليس لهم نصيب من الانتساب إلى هذا أو ذاك.

بل وأقول: لا فرق فى ذلك بين سيء النية وحسن النية.

إن سيء النية سيجد فى القول بالجبر مبررًا لما أقدم عليه من أفعال سيئة، وسيجد فى القول بالاختيار مبررًا لما يطلب من مكافأة على أعمال حسنة قام بها.

---

(١) كذب فيها قراءتان التثقيل بتشديد الذال والتخفيف بفتحها بدون تشديد ويقول الأمام الرازى: أما القراءة بالتخفيف فهى تصريح بأنهم كذبوا فى هذا القول وأما قراءة التشديد فإن المراد منه أن كل من كذب نبيًا من الأنبياء فى الزمان المتقدم فإنه كذب بهذا الطريق، لأنه يقول الكل بمشيئة الله تعالى فهذا الذى أنا عليه من الكفر إنما حصل بمشيئة الله تعالى، فلم يمنعنى منه.
فهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين فى تكذيب الأنبياء وفى دفع دعوتهم عن أنفسهم.

obeikandl.com

وأصحاب النية الحسنة سيجدون فى الأعمال والحوادث اليومية ما يجعلهم ينقسمون على أنفسهم.

نأخذ مثلا على ذلك ما يحدث لنا جميعًا فى الحوادث اليومية، ومهما اختلف الناس فى تفسير الحوادث تبعًا لاختلافهم فيما نالوه من علم فإن النتيجة التى سيصلون إليها تكاد تكون واحدة وهى أنهم سيختلفون بين القول بالجبر والقول بالاختيار.

وكل ما هناك أنك ترى الأسلوب المنظم المبنى على أسس علمية عند العلماء.

وأما العوام فإنهم يعللون ما وصلوا إليه بلا تعمق فى البحث وبلا اعتماد على مقدمات منطقية.

نرجع إلى هذا المثل الذى نريد أن نضربه:

أنت اليوم فى بدء يوم جديد تفكر إلى أين تذهب.

إلى عملك، إلى زيارة صديق، إلى قضاء اليوم فى مكان بعيد عن الناس، أو تترك كل هذا وتجلس فى البيت لسبب تراه.

وهنا تشعر بأنك تختار ما تريد.

وفى لحظة ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، وترى نفسك عاجزًا عن تنفيذ ما تريد.

وهذا العجز قد يكون من داخلك بسبب اعتلال صحتك فجأة، وقد يكون من خارج كنزول المطر، أو منع التجول أو موت صديق.. إلخ.

وهنا ننتقل - إن كانت الحوادث تركت لك مجالاً للتفكير - من القول بالحرية إلى القول بالجبر.

ولو فكرت من أول الأمر لربما شعرت بالجبر حتى فى بدء التفكير.

فحين يكون الصحيح بإمكانه أن يفكر فيما سبق يكون المريض ممنوعًا من التفكير فى هذا إلا على سبيل الخيال، والأمل، وهو أول من يعلم أنه لن يتحقق.

openkandil.com

ما الذى جعل الصحيح يفكر فى الذهاب إلى عمله؟ إنها الصحة أولا وقبل كل شيء وما الذى جعل المريض لا يفكر فيما فيه الصحيح؟ إنه عدم الصحة.

فإذا ما جئنا بعد هذا إلى رأى الباحثين فإننا سنجد الكثيرين ينتهون إليه[١]، وإن كانوا يختلفون فيما يأتون به من مقدمات يبنون عليها نتائجهم ولنأخذ من هؤلاء كأمثلة. جهم بن صفوان وابن سيناء وأبا العلاء المعرى.

ولنبدأ بابن سيناء[٢]:

فابن سينا من الفلاسفة يقول بارتباط الأسباب بالمسببات ويجعل أفعال الإنسان فى هذه السلسلة تقع بواسطة المؤثرات التى تؤثر فى فعل الإنسان دون أن يكون للإنسان أثر فى خلق هذه الأسباب المؤثرة.

فالإنسان ـ كما يرى ـ يملك العقل، ولكن هذا العقل قليل الأعوان محاط بالشهوة المتحفزة والغضب المتعطش الباطش.

وعن التصارع بين العقل، وقوى الشر هذه تكون أفعال الإنسان خيرًا أم شرًا ففعل الإنسان يقع وسط مؤثرات داخلية هى طبيعة الإنسان ووسط مؤثرات خارجية هى الظروف التى تحيط بالإنسان....

فإرادة الإنسان خاضعة لأسباب موجبة (بكسر الجيم)لا يتطرق إليها التجويز.

والمتتبع لابن سينا يجده ينتهى إلى الجبر المطلق لولا هذا الجزء الضئيل من الأمل حين يجعل النفوس متفاوته بسبب ما يحصل لها من التعود والتربية.

---

(١) أى إلى الجبر.

(٢) بدأت بابن سيناء وإن كان متأخرا فى الوجود لأن الكلام ربما يطول فى جهم، ثم يجب أن نعلم أن هناك فرقًا بين ابن سينا وجهم على رأى من يفرق بين الحتمية والجبرية فالجبرية يلاحظ فيها قوة خارجية "عالية تحقق إرادتها مستقلة عن الإنسان، أما الحتمية فأنها تذهب إلى أن كل فعل إنسانى يخضع خضوعًا حتميًا لأحداث معينة، وهذه الأحداث قد تكون فسيولوجية وقد تكون سيكولوجية من هنا نستطيع أن نقول إن الفلاسفة المسلمين ـ عندما يخضعون أفعال الإنسان لتكوينه وللأسباب الخارجية ـ حتميونى فى أول الأمر ولكنهم فى النهاية جبريون، لأن هذه الأسباب مخلوقة لله عندهم وليست مسببة عن غير إلهى كالإقتصاد مثلا عند ماركس.

ولكنه ينتهى إلى أن إرادة الإنسان إن لم تكن موجبة (معلولة) فهى كالموجبه. وبذلك يطبق ابن سينا مبدأ العليه فى أفعال الإنسان وهذه العليه من داخل الإنسان ومن خارجه.

فإذا ما انتقلنا إلى أبى العلاء المعرى فإننا نجده جبريا خالصًا.

ولنسمع إليه فى شعره حيث يقول:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
وفى الأصل غش والفروع توابع وكيف وفاء النجل والأب غادر
إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة كحالاتها، أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون - إن كان سامعًا أأنت على تغيير لونك قادر

وأبو العلاء يريد أن يسير فى الأمر إلى نهايته ولو وصل به إلى رفع الجزاء فيقول:

لا تمدحن و لا تذمن امرأ فيها، فغير مقصر كمقصر

وبذلك - لو اتبعنا أمثال أبى العلا - فإننا سنصل إلى عدم المساءلة عن فساد الأخلاق، لأن المقادير سببته، والأخلاق وراثة ولا يمكن أن يكون الفعل صحيحا والمصدر معتلا، ولا العكس كذلك الابن والأب ثم ينتهى إلى النتيجة التى يعلنها وهى أن الأخلاق كالألوان.

فالغراب الأسود لا يستطيع أن يغير لونه كذلك الأخلاق ليس بيد الإنسان تغييرها.

وبعد أبى العلاء ترى كثيرًا من الفلاسفة الذين يرون عدم إمكان تغيير الأخلاق ويجعلون للوراثة كل شيء[1].

بعد ذلك نرجع إلى أشهر من أسند إليه القول بالجبر وهو جهم بن صفوان.

الجهمية

جهم بن صفوان[1] أشهر من أسند إليه القول بالجبر.

---

(١) يرجع فى ذلك مباحث فى فلسفة الأخلاق د. محمد يوسف موسى ص ٥٤ وما بعدها.

إنه يرى:

أن الإنسان ليس يقدر على شيء، ولا يوصف بالإستطاعة وإنما هو مجبور فى أفعاله، ولا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات، وينسب إليه الأفعال مجازا، كما ينسب إلى الجمادات كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر وطلعت الشمس، وغربت، وتغيمت السماء، وأمطرت، وأزهرت الأرض، وأنبتت، إلى غير ذلك.

والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال جبر، قال:

وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضًا كان جبرًا[٢].

وجهم يقول بإرادة للإنسان إلا أنه لا يعنى إرادة حرة بل هى كلا إرادة فالله سبحانه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل واختيارا له منفردًا بذلك، كما خلق له طولا كان به طويلاً، ولونا كان به متلونا؟[٣].

والدكتور النشاريرى فى قوله:- على ما روى الأشعرى - (منفردًا بذلك) يرى فى هذا القول أن الإنسان عند جهم "ليس مجبرا جبر الحيوانات أو الجمادات الصماء، إن الله خلق له قوة بها يفعل ما يريد. وخلق له اختيارًا انفرد به الإنسان دون غيره من الكائنات فالجهم - كما يقول النشار - جبرى لا شك فى ذلك، ويقرر أن الله هو الفاعل على الحقيقة ولكنه يرى أن فى هذا الجبر بعض الاختيار أنه يقترب إلى حد ما من المذهب الكسبى العقيدة الناجية عقيدة الأشاعرة[٤].

ونقول: هل يجوز لنا أن نفهم ما فهمه الدكتور النشار بعد أن يروى الأشعرى أن جهما يرى أن الأفعال تنسب إلى الناس"على المجاز كما يقال تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك - بالشجر والفلك والشمس[٥].

---

(١) جهم بن صفوان السمرقندى أبو محرز من موالى بنى راسب رأس (الجهميه) قال الذهبى: الضال المبتدع، هلك فى زمان صغار التابعين وقد زرع شرًا عظيمًا كان يقضى فى معسكر الحارث بن سريح الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر ابن سيار... وأمر بقتله فقتل. عن كتاب الإعلام للزركلى.

(٢) الملل والنحل ص ١٢٨ - ١٢٩ جـ١.

(٣) مقالات الإسلاميين وأنظر مع هذا مختصر الفرق بين الفرق ص ١٢٨.

(٤) نشأة الفكر الفلسفى ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٥) مقالات الإسلاميين ص ٢٣٨.

وكيف يفهم أنه جعل للإنسان إرادة وهذه الإرادة تميزه عن الحيوان،مع أننا نلاحظ هنا أنه يشبه الإرادة بالطول واللون،وهو تشبيه ينبئ عما يريد جهم، فالإنسان لا تأثير له فى إطالة نفسه ومع ذلك يقال طال فلان وهو كذلك لا تأثير له فى الإرادة ومع ذلك يقال أراد. ولكن ما العمل، وجهم على ما أعلم ـ لم يترك كتبا، والاعتماد هو على ما روى عنه؟

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى بقية آ راء الجبرية فى الله سبحانه.

فإننا نجد آراءهم خليطًا فمرة يشبهون المعتزلة ومرة يبتعدون عنهم فجهم "وافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية وزاد عنهم بأشياء.

منها قوله:

لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيهًا فنفى كونه حيا عالما، وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقًا،لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق.

ومنها إثباته علوما حادثة للبارى تعالى لا فى محل....[1] "

هذا هو ما ينقلونه عن جهم وفى الحقيقة نجد الاحتياط فى الحكم على العقائد يقتضى أن نتوقف فى الحكم على عقيدة جهم بحسب ظاهر ما ورد عنه لأننا نلاحظ تضاربا فيما ورد عنه.

إذ أنه كيف يثبت كونه تعالى قادرا فاعلا خالقا وينفى كونه عالما إلا إذا كان يريد من عالم معنى آخر.

هل الله سبحانه قبل أن يخلق العالم لم يكن عالمًا بأنه على أى صفة سيكون؟

هل لم يقرأ القرآن ليعلم أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة بأنه "جاعل فى الأرض خليفة".

ويعلم أن الله سبحانه أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروم بأنهم **"من بعد غلبهم سيغلبون"**

---

(١) الملل والنحل ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

كل ما يمكن أن يقال عن جهم إنه أراد البحث فى ذات البارى سبحانه وتنزيهه فضل الطريق.

أقول ذلك لأنه فى إثباته علوما حاثة للبارى تعالى لا فى محل كان يظهر تنزيه البارى سبحانه حيث يقول: "لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه لأنه لو علم ثم خلق.أفبقى علمه على ما كان أو لم يبق.

فإن بقى فهو جهل، فإن العلم بأنه سيوجد غير العلم بأن قد وجد.

وإن لم يبق، فقد تغير، والمتغير مخلوق، ليس بقديم....

قال: وإذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو:

إما أن يحدث فى ذاته تعالى، وذلك يؤدى إلى التغير فى ذاته، وأن يكون محلا للحوادث.

وإما أن يحدث فى محل، فيكون المحل موصوفًا به لا البارى.

فنعين أنه لا محل له.

فأثبت علومًا حادثة، بعدد المعلومات الموجودة[1].

نرى جهما يحاول تنزيه الله سبحانه ولكنه ينتقل من خطأ إلى خطأ، فينفى العلم، ثم يثبت علومًا لا فى محل.

وإذا سألت ما الصلة بين هذه العلوم التى لا فى محل وبين البارى سبحانه حتى تنسب إليه لا تجد جوابًا كله تخبط.

كل هذا يصيب الباحث الذى يتعدى حدوده، ويقحم عقله فى تفاصيل الغيب بدون سماع من معصوم وهذا الذى تعدى حدوده يثير الشبهة، ويحاول الرد عليها فإذا به يخرج من حفرة ليتردى فى هوة:

وجهم برغم أرائه المضطربة قد ظلم المؤرخين.

فمنهم من يرى أنه قال بالجبر إرضاء لبنى أمية.

ومنهم من يرى أنه قتل من أجل بدعته.

وفى الحقيقة لا هذا هو السبب ولا ذاك.

---

(١) الملل والنحل ص ١٢٨ جـ١.

لأننا لو قلنا: إنه قال بالجبر إرضاء لبنى أمية لوقف فى طريقنا حياة جهم وأنه خرج على بنى أمية مع شريح بن الحارث [١] وقتله سلم بن أحوز المازنى فى آخر ملك بنى أمية[٢].

وإن قلنا إنه قتل من أجل بدعته يقف فى طريقنا ما هو معلوم من بنى أمية وأنهم كانوا يتمنون أن يعتقد الناس أن كل شيء بقضاء حتى يجدوا فى ذلك مخرجا لما وقع على أيديهم من قتل.

لقد لاحظ المؤرخون هذا إلى درجة أن جعلوا ذلك سببًا فى عقيدة معبد الجهنى الذى هو على النقيض من الجبرية.

يقول محمد إقبال عن بنى أمية النهازين للفرص حسب رأيه:

"واحتاجوا إلى سند يستندون إليه، فى سوء صنيعهم بكربلاء؛ وليحفظ لهم ثمار تمرد معاوية من أن يقضى عليه ما يمكن أن تقوم به الجماهير من ثورة عليه فقالت بقدر الله:

يروى أن معبدًا قال للحسن:

إن بنى أمية يسفكون دماء المسلمين، ويقولون إنما تجرى أعمالهم على قدر الله تعالى.

فأجابه الحسن إنهم أعداء الله، وإنهم لمفترون.

وهكذا نشأ - على الرغم من معارضة علماء الدين فى الإسلام معارضة صريحة - القول بالقدر على نحو "مزر"وقامت نظرية الحكم المعروفة باسم الأمر الواقع لتدافع عن المحتكرين للصالح.

---

(١) مختصر الفرق بين الفرق ص ١٢٨ وذكر هنا أنه خرج مع شريح بن الحارث وفى كتاب الإعلام مع الحارث بن سريح وكتاب الإعلام يتفق مع الفصل لابن حزم حيث يقول"جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريح التميمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان" ص ٤٦ جـ٤.
والسجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ يقول عنه خرج مع الحارث بن سريح ص ١٠٩ عقائد السلف.

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٣٣٨.

obeikandl.com

وليس فى هذا ـ كما يقول إقبال ـ ما يثير العجب مطلقًا، ففى زماننا هذا قد قدم الفلاسفة نوعا من التسويغ العقلى لا عتبار النظام الرأسمالى الحالى للمجتمع أكمل نظام[١].

محمد إقبال هنا يذهب مع المؤرخين إلى أن بنى أمية كانوا يشجعون القول بأن كل شيء بقضاء أى بالجبر، فكيف يقتلون من يقول بالجبر من أجل قوله:

ومعبد الجهينى يقوم ليقاوم القول بالجبر ليلزم بنى أمية الحجة، كما ذكر إقبال.

والعجب أن معبدًا لم يرض بنى أمية فقتلوه [٢]كما لم يرض المتدينين، ولذلك نرى عبد الله بن عمر يعلن البراءة منه[٣].

وننتهى إلى أن جهما قال برأيه كعقيدة له وقتل لخروجه على بنى أمية.

ويظهر من دراسة الموضوع أن نفور المسلمين كان يحصل من التعبير أو من المبالغة فى مخالفة المذهب المقابل فالمبالغة فى المذهب المقابل مثل ما كان من معبد الجهنى، فإنه أزعجه تبرير بنى أمية لعملهم، فذهب إلى أنه لا دخل لإرادة الله، ولا

---

(١) تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ص ١٢٨.

(٢) قتله الحجاج بن يوسف لأنه خرج مع ابن الأشعث:

(٣) روى أى مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال:

كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهنى، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فالتفته أنا وصاحبى، أحدنا عن يمنيه، والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، وتفتقرون العلم، وذكر من شأنهم. وأنهم يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف. قال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم براء منى. والذى يحلف به عبد الله بن عمر. لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثنى أبى عمر بن الخطاب. قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب. شديد سواد الشعر. لا يرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

قال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت، قال فعجبنا له، يسأله ويصدقه، قال فأخبرنى عن الإيمان، قال أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت... إلى آخر الحديث.

ونأخذ من هذا أن الكلام فى القدر كان يملأ البيئة هنا وهناك، والسبب فى كل هذا هى تلك الحروب الأهلية التى أخذت تشغل المسلمين، وتملأ الجو برائحة الدم.

لقدرته فى أعمال الإنسان، وسار فى المبالغة إلى النهاية عندما قال بأن الله لا يعلمها قبل وقوعها.

فهل يرضى أحد من المسلمين بهذا.

والتعبير كثيرا ما كان سببًا من النفور. من المذهب، وإن كان لا يبعد كثيرا عن غيره من المذاهب التى قبلتها الأمة وذلك مثل الجبرية[١].

إن الأشعرية أنفسهم يعترفون بأن مذهبهم ينتهى إلى الجبر ولا يفترق عن الجبرية إلا فى التعبير فقط.

فالعبد - عند الأشعرية مختار حسب الظاهر، وإلا فمآله للجبر، لأن اختياره بخلق الله.

فالعبد مختار ظاهرا مجبور باطنا، فهو مجبور فى صورة مختار، خلافًا للمعتزلة للقائلين: إنه مختار ظاهرا وباطنا وللجبرية القائلين إنه مجبور ظاهرا وباطنا"[٢].

فإذا ما حاولنا أن نفهم المحرك لكل قائل على ما قال، فإننا سنضيق دائرة التكفير ولو كان جهم يرى أن الإنسان مجبور إلى درجة أنه لا تنفع معه موعظة، لو كان يرى هذا لما دعا إلى الخير، ولكن الواقع غير ذلك لأن مؤرخى الفرق يقولون عنه:

أنه "كان ينتحل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[٣].

وبعد الجبر نرى لجهم عقائد ترفضها الأمة كما سيأتى.

وممن يعدون مع الجبرية النجارية الذين "اثبتوا كونه تعالى مريدا لم يزل لكل ما علم أنه سيحدث من خير وشر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية"[٤].

❖ ❖ ❖

(١) ليس معنى هذا أن كل مذهب جهم ليس بعيدا عن عقائد الأمة، بل فى نقطة الجبر فقط إذا لم تؤخذ كتبرير للمعاصى.

(٢) حاشية الدسوقى على السنوسيه ص ٣٨٨ وهذا صحيح فيمن يجعل الكسب مخلوقًا لله تعالى، وأما من يستثنى الكسب ويجعله بقدرة العبد فإنه لا يصدق عليه ما قاله الدسوقى

(٣) مقالات الإسلاميين ص ٣٣٨ جـ ١ وانتحل مذهب كذا: انتسب إليه ودان به.

(٤) الملل والنحل ص ١٣٣ جـ١.

وبعد فإن الدفاع عن وجهة نظر جهم ليس معناه الدفاع عن عقيدته.

إن الدفاع عن وجهة نظر ما يعنى أننا نريد أن نعرف لماذا قال هذا الرأى وحينئذ نقول فى شخص ما كفر، لماذا كفر.

وعلى هذا الأساس فإننا يجب - برغم بيان وجهة نظر جهم - أن نبين أنه أخطأ خطأ يصل به إلى الكفر إذا كان قد نفى علمه تعالى بما سيكون، لأنه بذلك يكذب آيات فيها أخبار بالغيب عن حوادث ستقع ثم وقعت كما أخبر وكانت من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

ولقد أثار مشكلات شغلت الفرق الكلامية بعد ذلك وحاولوا الإجابة عليها.

❖ ❖ ❖

بعد ذلك نسأل سؤالا بعيدًا عن فرق المتكلمين هو

هل انتهى القول بالجبر، أو أن الجبرية لا زال لها أنصار.

والجواب هو:

إننا فى العصر الحديث نجد القول بالجبر يجد له الأنصار الكثيرين ونجد من الفلاسفة المحدثين من يقول بالجبرية "واعتبار الشعور بالحرية. وهما ناشئا من شعورنا بحركاتنا النفسية، يصحبه جهلنا بالأسباب الدافعة إلى الفعل بحيث تكون هناك ضرورة غير موعيه، لا حرية موعيه.

فيقول اسبينوزا:

أليس الحالم والمستهوى والسكران يتوهمون أنهم يفعلون بحرية؟

ويقول "بيل" و "هوبس":

ولو كانت الإبرة الممغنطة، أو دوارة الهواء، أو دوامة الماء مفكرة واعية، وشعرت بدورانها، وهى تجهل سببه أليست تتوهم أنها تدور من تلقاء نفسها حرة مختارة [1]؟"

إذا فالإنسان مجبر على أفعاله، وما يشعر به من حرية أنما هو وهم.

وللقائلين بالجبرية حجج.

---

(١) الطبيعة وما بعد الطبيعة: يوسف كرم هـ٢/١٠٧ نفسه ص ١١٢.

"وأعم فكرة يستندون عليها فكرة العلم، التى تجعل من الوجود مجموع علل ومعلولات مترابطة ترابطًا ضروريا.

وينتج منها أن الإنسان آلة.

إما آلة مادية خاضعة لمختلف التأثيرات الخارجية، والداخلية كما يقرر الماديون.

وإما آلة روحية، على حد قول"ليبنتز".

وكثيرًا ما يقولون:

إن افتراض علل حرة تتهدد النظام الطبيعى بالاضطراب، والانهيار ويقضى على كيان العلم. إذ إنه لا ينهض إلا بتصور الطبيعة كلا متفاعل الأجزاء ثابت القوانين كما يبدو لأول نظرة نلقيها عليه". وفى هذه الأيام خرج الجبريون بأن الإنسان فى سلوكه معلول للجينات التى تقوده.

وهكذا نجد أن القول بالجبر تشترك فيه الإنسانية فى جميع عصورها، وبجميع طبقاتها.

فما من عصر من العصور، وما من طبقة من الطبقات إلا ونجد فى هذه الطبقة وذلك العصر من يقول بالجبرية.

فإذا ما جاء جهم بن صفوان وأسند إليه القول بالجبرية فإننا ـ إذا أردنا أن يكون الكلام علميا ـ يجب ألا نجعله وحده القائل بالجبر، بل ولا أول من قال به.

بل يمكن أن نقول أول من بلغنا عنه، أو أول من قال بذلك كصاحب مذهب يسمع له وينقل عنه فى الإسلام.

وكما أنه ليس أول من قال بذلك فليس بآخر من قال به.

لأن هذه مشكلة الإنسانية التى ستبقى مشغولة بها.

بعد ذلك نسأل:

ما حكم القول بالجبر من ناحية العقيدة؟

والجواب: أن الإيمان بالقدر واجب.

فإذا ما آمن الإنسان بأن كل شيء من الله وأن الإنسان لا تأثير له.

obeikandl.com

وقصد من وراء ذلك التسليم المطلق، بلا اعتراض على فعل و لا سؤال:

لم كان هذا ولم يكن ذاك، وأدى ما طلبه منه الشرع.

إذا قال الإنسان بأن العبد لا شيء وكل شيء من الله، ووقف عند هذا الحد، فإن إيمانه كامل بشرط أن يأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله.

فإذا جاءت النتيجة على غير ما توقع فعندئذ يكون الإيمان بالقضاء والقدر.

أما إذا قال بأن الإنسان لا اختيار ولا عمل له، وكل شيء بقدرة الله، وقصد من وراء ذلك التخلص من التكاليف أو الاعتذار بالقدر عما وقع.

فإن هذا يعتبر خروجا عن الدين.

والقرآن الكريم قد بين هذا فى أكثر من آية مثل ما تقدم من آيتى الأنعام والنحل.

وفى الحقيقة إن ما كتب عن الجهمية أصبح كافيًا لكى يتبين الباحث من خلاله قوما ضلوا الطريق.

ولا يستطيع الباحث أن يشك فى كل ما كتب عنهم ودانهم، لأن هؤلاء الذين أدانوهم ثقات مثل الإمام البخارى وأحمد بن حنبل، وابن قتيبة، وأبى سعيد الدارمى[1].

خاتمة فى الرأى فى جهم وأصحابه.

جاء جهم بعقائده وكانت مفاجأة للأمة، ومعظم الذين قتلوا على يد بنى أمية يجدون العطف من الناس إلا جهما وأمثاله فإننا نجد الشماتة فيه.

لقد أسندت إلى جهم عقائد منها قوله بأن علم الله حادث كما تقدم، وأن كلام الله صفة حادثة وفناء الخلدين (الجنة والنار)[2].

هذه الآراء وأمثالها كانت السبب فى هجوم علماء الأمة على جهم.

فيروى عنه "أنه ترك الصلاة أربعين يوما"[1].

---

(١) تحت عنوان "عقائد السلف" جمع النشار وتلميذه عمار الطالبى هذه الرسائل فى كتاب واحد مع ملحق من التفسير المسمى محاسن التأويل للقاسمى.

(٢) وينبغى أن نلاحظ أن الجهم بن صفوان يقرر أن الله قادر على أن يخلق أمثال الجنة والنار بعد فنائهما، نشأة الفكر الفلسفى د. النشار ص٣٤٤.

وفى رسالة الإمام البخارى (فى خلق أفعال العباد[٢]) يقول:

وقال على بن الحسن[٣] سمعت ابن مصعب يقول.

كفرت الجهمية فى غير موضع من كتاب الله.

قولهم: إن الجنة تفنى، وقال الله (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) (٥٤/ ص) فمن قال: إنها تنفد فقد كفر.

وقال: (أكلها دائم، وظلها) (٣٥/ الرعد) فمن قال: إنها لا تدوم فقد كفر.

وقال: (لا مقطوعة ولا ممنوعة) (٣٣/ الواقعة) فمن قال: إنها تنقطع فقد كفر.

وقال: (عطاء غير مجذوذ) (١٠٨/ هود) فمن قال إنها تنقطع فقد كفر.

وقال: أبلغوا الجهمية أنهم كفار، وأن نساءهم طوالق[٤].

وفى رسالة أبى سعيد الدرامى فى الرد على الجهمية يقول:

حدثنى الزهرانى أبو الربيع قال:

كان من هؤلاء الجهمية رجل، وكان الذى يظهر من رأيه الترفض، وانتحال حب على بن أبى طالب رضى الله عنه.

فقال له رجل ممن يخالطه، ويعرف مذهبه: فقد علمت أنكم لا ترجعون إلى دين الإسلام، ولا تعتقدونه فما الذى سنتكم (هكذا) على الترفض وانتحال حب على؟

قال: إذا أصدقك. إنا إن أظهرنا رأينا الذى نعتقده، رمينا بالكفر والزندقة، وقد وجدنا أقواما ينتحلون حب على، ويظهرونه، ثم يقعون بمن شاءوا، ويعتقدون ما شاءوا، ويقولون ما شاءوا، فنسبوا بذلك إلى الترفض والتشيع.

فلم نر لمذهبنا أمرا ألطف من انتحال حب هذا الرجل ثم نقول ما شئنا، ونعتقد ما شئنا، ونقع بمن شئنا.

فلان يقال لنا رافضة. أو شيعة أحب إلينا من أن يقال زنادقة، كفار، وما على عندنا أحسن حالا من غيره ممن نقع فيه[١].

---

(١) ص ١٠٩ عقائد السلف وهو من رسالة (ملحق فى الجهمية)تأليف أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى.

(٢) ضمن كتاب عقائد السلف تحقيق الدكتور على سامى النشار وعمار الطالبى.

(٣) على بن الحسن بن سيفان محدث مرو كان يجادل اليهود، وكتب التوراة والإنجيل توفى سنة٢١٥ هـ "عن هامش الرسالة المذكورة".

(٤) ص ١٢٢

هذا هو الرأى فى الجهمية. والنتيجة التى تتبع ذلك ـ وصرحوا بها فعلا ـ أن الجهمية يعاملون معاملة الكفار، فأفتوا بقتلهم، وبعضهم يأمر بقتلهم دون أن يستتابوا لأنهم أسوأ من اليهود والنصارى "ولذلك قال ابن المبارك رحمه الله: لأن أحكى كلام اليهود والنصارى أحب إلى من أن أحكى كلام الجهمية[١].

ولم يكتف خصوم جهم بمهاجمة آرائه، بل بينوا مصدر هذه الآراء، وأنها غير إسلامية وأخذها جهم عن اليهود.

ويذكر ابن تيمية[٢] أن أصل الجهمية ومقالتها يرجع إلى عناصر دخيلة على الإسلام لأن "جهم ابن صفوان"(+ ١٢٨هـ) أخذ مقالته عن "جعد بن درهم" وقيل أيضًا إن "جعد بن درهم" أخذ التعطيل عن "أبان بن سمعان" وأخذها "أبان" عن "طالوت" وأخذها "طالوت" عن خاله "لبيد بن الأعصم" اليهودى.

أما جعد بن درهم فهو من أرض حران التى كان فيها عناصر كثيرة من الصابئة والفلاسفة.

ومن ثم فإن مقالة الجهمية ترجع إلى عناصر فلسفية وصابئية، ويهودية.

وقد أخذ "الفارابى" (+٣٣٩) نفسه عن فلاسفة حران، كما أخذ "جهم بن صفوان" عن البوذية أو السمنية.

ولما انتشرت آراء الجهمية، ومذهبها فى التعطيل. وإنكار الصفات، وفى القول بخلق القرآن تصدى لها الأئمة من سلف هذه الأمة بالرد، وبيان ضلالها وانحرافها".

فهنا نجد أن المفكرين لم يكتفوا بالهجوم على جهم بل شفعوا ذلك ببيان مصدره الأجنبى.

وفى الختام نقول إن حكما واحدا لا يمكن أن يشمل فكر جهم، وإخراجه هكذا من الدين بل يجب أن نحاول ما أمكن عدم تكفيره ولا تكفير أحد من أهل القبلة وليس معنى هذا أن نرضى بهذه الآراء وفى النهاية الأمر متروك لله سبحانه.

---

(١) نفسه ص ٣٥١.
(٢) نفسه ص ٣٥٤.
(٣) عن مقدمة كتاب عقائد السلف ص ٧.

بل ـ وكما قلت فى مقدمة الطبعة الأولى ـ نفرق بين الحكم على هذا الرأى ثم هذا الرأى لفلان.

ففى المسائل التى اسندت إلى جهم نقول: حكم الدين أن القول بهذه الآراء خروج على الدين ثم ننتقل إلى: هل جهم قال بهذه الآراء يقينًا؟ ثم نقول بالحكم عليه تبعًا لذلك.

وإذا أبعدنا عنه الكفر فإن الواجب يقتضى أن نبقى محذرين من هذه الآراء التى أثارت مشاكل شغلت الأمة بعد ذلك.

obeikandl.com